

العولمة والحياة الثقافية

فى العالم الإسلامى

إعداد

أ.د. عبد العزيز بن عثمان التويجى

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية

والعلوم والثقافة - إيسيسكو -

obeikandi.com

توطئة :

لكل عصر مفاهيمه ومصطلحاته ومفرداته، ولكل مرحلة من مراحل التاريخ البشرى، اهتماماتها وقضاياها وانشغالاتها، وفي مسيرة الفكر الإنسانى تتجدد ألفاظ الحضارة وتتطور معانيها وتتشعب مضامينها، وتبرز أفكار جديدة ونظريات مبتكرة تنحو مناحى متعددة وتطرح فى صياغات مستحدثة، أو تصب فى قوالب ونظم تلائم العصر وتعبّر عن طبيعته وتستهدف قضاياها.

ومن المفاهيم الجديدة التى تطرح فى هذا العصر، وتحديدًا منذ العقد الأخير من القرن الماضى، مفهوم (العولمة) الذى اقترن ظهوره بانتهاء الحرب الباردة وابتداء بما اصطلح عليه بـ(النظام العالمى الجديد) الذى هو فى حقيقة أمره وطبيعة أهدافه، نظام صاغته قوى الهيمنة والسيطرة لإحداث نمط سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى وإعلامى واحد وفرضه على المجتمعات الإنسانية كافة وإلزام الحكومات بالتقيد به وتطبيقه.

ولقد خالط مفهوم العولمة هذا كثير من الأوهام حتى صار من المفاهيم المعقدة، المبهمة أحيانًا، المثيرة للجدل دائمًا، المرتبطة فى الأذهان بالسياسة التسلطية التى تمارسها الدولة التى انفردت بزعامة للعالم فى هذه المرحلة، بعد أن خلا لها المجال يانهيار القطب الموازى لها، ومسقوط منظومته المذهبية الفلسفية والسياسية والفكرية والثقافية.

ولذلك فإن للعولمة وجوها متعددة فهى عولمة سياسية، وعولمة اقتصادية، وعولمة ثقافية، وعولمة إعلامية وعولمة علمية وتقنية، والخطير فى الأمر كله، أن لا وجه من هذه الوجوه يستقل بنفسه، فعلى سبيل المثال، لا عولمة ثقافية بدون عولمة سياسية واقتصادية تمهد لها السبيل وتفرضها فرضاً بالترهيب والإجبار تارة، وبالترغيب والتمويه تارة أخرى.

ومن هنا، كان لابد أن نفهم (العولمة) باعتبارها منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يراد إكراه العالم كله على الاندماج فيها، وتبنيها، والعمل بها والعيش في إطارها. وذلك هو العمق الفكري والثقافي "والأيدولوجي" للنظام العالمي الجديد.

ما العولمة ؟

على تعدد الشروح وتنوع التفسيرات التي حاول بها مفكرو العصر من المشتغلين بالفكر السياسي في اتجاهاته الثقافية والاجتماعية فهم العولمة وتفسيرها، فإن أجمع شرح للعولمة وأعمق تفسير لدلالاتها ومضامينها، لا يخرج عن اعتبار العولمة في دلالتها اللغوية، أنها جعل الشئ عالميا، بما يعنى ذلك جعل العالم كله وكأنه في منظومة واحدة متكاملة، وهذا هو المعنى الذى حدده المفكرون باللغات الأوروبية للعولمة GLOBALIZATION فى الإنجليزية والألمانية، وعبروا عن ذلك بالفرنسية بمصطلح MANDIALISATION ووضعت كلمة العولمة فى اللغة العربية مقابلا حديثا لهذا المفهوم الجديد.

ومهما تعددت السياقات التى ترد فيها (العولمة) فإن المفهوم الذى يعبر عنه الجميع فى اللغات الحية كافة هو اتجاه السيطرة على العالم وجعله فى نسق واحد، ومن هنا جاء قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة بإجازة استعمال العولمة بمعنى جعل الشئ عالميا^(١).

لقد رجعت إلى المعجم العالمى الشهير (ويبسترز WEBSTER'S) فوجدت فيه أن العولمة (GLOBALIZATION) هى إسباب الشئ طابع العالمية، وخاصة جعل نطاق الشئ أو تطبيقه، عالميا^(٢)، ولكنى أنفيت أن هذا المعنى شديد البراعة بالغ الحيدة، لا ينسجم فى عمقه مع دلالة اللفظ ومفهوم المصطلح، كما يشاع ويتردد فى العالم اليوم، ولذلك فإن المفهوم السياسى والثقافى والاقتصادى للعولمة،

(١) د. محمود فهمى حجازى، مجلة (الهلال) عدد مارس ٢٠٠١، ص ٨٧.

(٢) WEBSTER'S NEW COLLEGIATED: CTIONARY, 1991, P.521.

لا يتحدد بالقدر اللازم، إلا إذا نظرنا إليه في ضوء رؤية عامة تدخل في نطاقها جميع المتغيرات السياسية والثقافية والاقتصادية التي يعيشها العالم منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين^(١).

فهل العولمة خطر؟ وهل العولمة شر كلها؟ وهل يوجد مجال للاختيار أمام تيار العولمة الجارف المدعم بالنفوذ السياسي الضاغط والهيمنة الاقتصادية القاهرة؟ لقد اعتنى المفكرون، من شتى المشارب سواء في العالم الإسلامي، أو من مختلف أنحاء العالم، بالتأصيل والتفنيد والتنظير للعولمة، وحسبنا أن نقول إن العولمة نظام عالمي أخذ في الغزو والانتساح، وهو بهذا الاعتبار حقيقة من حقائق هذه المرحلة من التاريخ.

ولعل أبرز ملامح العولمة هي ما يتبدى لنا عن طريق التطورات المدهشة التي تعرفها مجالات الاتصال والتواصل عبر الأقمار الصناعية والحاسوب والإنترنت، وذلك على النحو التالي:

* عمق التأثير في الثقافات وفي السلوك الاجتماعي وفي أنماط المعيشة.

* اتساع دائرة الخيارات الاقتصادية بواسطة حركة الاستثمارات الدولية والأسواق المفتوحة، وتضييق دائرة الخيارات السياسية من حيث تضائل القدرة على الاكتفاء الذاتي اقتصاديا، ومن حيث تزايد معطيات التدخل الاستقلالي سياسيا.

* نمو ما أصبح يعرف باسم القطيع الإلكتروني (ELEC - TRONIN - HERD) من مؤسسات متعددة الجنسيات، وحتى من أفراد يبحثون عن الربح ويؤثرون في قرارات الدول وفي مصائر شعوبها.

* تسخير أدوات العولمة بكيفية تمكن منتجي هذه الأدوات من الطغيان على المستهلكين والمتعلقين بحيث تؤثر في إلغاء لغاتهم الخاصة وفي طمس هويتهم الوطنية.

(١) د. عبد العزيز بن عثمان التويجى، الحوار من أجل التعايش، ص ٦١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨.

وبذلك يكون للعولمة قدرات استثنائية للتغلغل وبالتالي للتأثير، ومن الشهادات التي تؤكد هيمنة العولمة على مقدرات الحكومات والشعوب، ما جاء في كلمة للرئيس الفرنسي جاك شيراك ألقاها بمناسبة اليوم الوطني الفرنسي (١٤ يوليو ٢٠٠٠) حيث قال: "إن العولمة بحاجة إلى ضبط لأنها تنتج شروخا اجتماعية كبيرة، وهي وإن كانت عامل تقدم، فهي تثير أيضا مخاطر جديدة ينبغي التفكير فيها جيدا، ومن هذه المخاطر ثلاثة: أولها أنها تزيد ظاهرة الإقصاء الاجتماعي، وثانيها أنها تنمي الجريمة العالمية، وثالثها أنها تهدد أنظمتنا الاقتصادية^(١)."

والواقع أن العولمة جزء من نظام عالمي تخضع له الشعوب والحكومات ولا يملك أحد منها أن يقف بمنأى عنه، ولذلك فإن العامل النفسي هو الذي يجعلنا نتردد، ونرتاب، ونرتعب أيضا، ونقف مشدوهين مبهوتين، فإذا عالجتنا الآثار النفسية المترتبة على الموقف الذي نتخذه إزاء ما يعج به عالمنا اليوم، بمنتهى الحكمة، وبقدر كبير من الرشد الحضاري والوعي الإنساني، أمكننا أن نواجه الواقع كما هو في حقيقته وبطبيعته، لا كما نتوقعه أو نتوهمه أو نريده.

إن الصدق مع النفس، هو الخطوة الأولى نحو امتلاك أدوات التحكم في الآثار المدمرة للعولمة الثقافية، ومن الصدق مع النفس، أن نعترف ونقر بأننا أمة إسلامية، وفي هذه المرحلة التاريخية، لا نمتلك القدرات الكافية لكسر موجات العولمة، وللتحكم في اتجاهات الرياح التي تهب بها، ولا ينبغي أن يفت هذا الموقف الصادق في عضدنا، أو أن يقعدنا عن القيام بما يتعين علينا القيام به، من عمل دؤوب للتخفيف من وطأة آثار العولمة، ولرد هجماتها، وللتقليل من الخسائر الناجمة عن هذا الغزو ما أمكننا ذلك، وما استطعنا أن نسلك من سبيل إلى القيام بما يستوجب الموقف.

(١) محمد السماك، من محاضرة له عن مستقبل الصحافة العربية في ظل العولمة منشورة في مجلة (الحوادث) عدد ٢٣١٠، ٢٣/٩/٢٠٠١، ص ٦٣.

دوائر العولمة :

هل للعولمة جانب واحد - هو الجانب السلبي الذي ينعكس في الآثار السينة والمضار والمخاطر التي تهدد استقرار المجتمعات الإنسانية - أم أن لها جوانب متعددة منها السلبي، ومنها الإيجابي؟

نعتقد أن هذا السؤال يصح أن نتخذه مدخلا إلى فهم أعمق للعولمة على المستويات كافة، وبصورة خاصة على المستوى الثقافي، وإلى استيعاب أشمل لمضامينها.

والحق أن ما من نظام أو منهج أو فكرة سياسية واجتماعية تتصل بحياة البشر، إلا ولها وجوه متعددة على اعتبار أن الفكر الإنساني هو ذو منزع مزدوج من الخير وشر، وهما العنصران الكامنان في الضمير الإنساني، وعلى هذا الأساس، فإننا نرى أن للعولمة دوائر تتحرك فيها، وهي بذلك ليست دائرة واحدة منحصرة في حدود معلومة، وللإرادة الإنسانية تأثير في تحديد هذه الدوائر ورسم معالمها وضبط مساراتها.

وعلى الرغم من وضوح هذه الفكرة، فإن التركيز على الجانب الاقتصادي والسياسي للعولمة، جعلها تغيب في أحيان كثيرة عن الأذهان، إلى درجة أن معظم المفكرين في العالم، ومنهم طائفة من المفكرين في العالم الإسلامي، يغفلون عن الجوانب الأخرى للعولمة، وينزعون نحو إدانة العولمة جملة وتفصيلا، الأمر الذي تضع معه عناصر كثيرة من الحقيقة، بحيث يقع الخلط بين الحق والباطل وبين الواقع والمثال.

إن رفضنا العولمة وتدنينا المتكرر عالي الصوت بآثارها السلبية، وتركيزنا على نقض أسسها ودحض ادعاءات المروجين لها، كل ذلك لن يؤثر في طبيعة الوضع الناجم عن هيمنة النظام العالمي الذي يفرض العولمة على العالم، ولن يكون لموقفنا هذا، أي تأثير إيجابي على العولمة، من حيث هي فكرة ومنهج وأسلوب ونظام وتيار عارم جارف يكتسح الحواجز ويدك المواقع، ولذلك فإننا ندعو إلى أن

نلتمس للعولمة جوانب إيجابية، ونعمل ما وسعنا العمل، لتوظيف إيجابيات العولمة فيما ينفعنا في حياتنا العامة.

إن المسألة في حاجة شديدة إلى ضبط منهجى نتحكم به في العولمة بأعلى ما نستطيع من قدرات، وبذلك نسلك طريقنا إلى الاستفادة من العولمة على النحو الذى يدفعنا إلى الإسهام فى الحضارة الإنسانية الجديدة، من موقعنا الثقافى المتميز وبخلفيتنا التاريخية وبهويتنا الحضارية المتفردة.

إن هذا الموقف الإيجابى إزاء العولمة يتطلب منا أن ننخرط فى المعترك الثقافى العالمى، وأن ندفع بمجتمعاتنا فى اتجاه التفاعل المتحرك مع المتغيرات المتسارعة، حتى نفهم ما يجرى حولنا، ونستوعب التحولات الكبرى التى تعيشها الإنسانية فى هذا العصر، ولئلا نبقى قاعدين نلذب حظوظنا، وعاجزين نتفرج على العالم يتطور ويتقدم.

إن الهزيمة النفسية أمام العولمة تانى من اعتبار ظاهرة العولمة حتمية وهذا أمر مبالغ فيه، وهو لا يعبر عن حقيقة هذه الظاهرة، لأن اعتبار ظاهرة العولمة حتمية، قد لا يكون فى الحقيقة أكثر من اعتراف المرء بأنه لم يعد لديه طاقة باقية للمقاومة، أى أنه قد نفذ جهده، وأصبح مستعدا للتسليم، فإذا كان هذا هو اختيار بعضهم، فهو ليس ملزما لغيرهم، ومن الظلم على أى حال، أن يوصف بالحتمية اختيار لا يعكس إلا نفاذ الطاقة أو استعجال المكافأة، وهو موقف ظالم، لأنه يحمل عدة أجيال قادمة عبء فشل جيل بعينه، فاعتبار ظاهرة ما حتمية، يتوقف أيضا على المدى الزمنى الذى يأخذه المرء فى اعتباره^(١).

إن حقائق الأشياء تؤكد أن العولمة لا تمثل خطرا كاسحا ومدمرا، إلا على الشعوب والأمم التى تفتقر إلى ثوابت ثقافية، أما تلك التى تمتلك رصيذا ثقافيا وحضاريا غنيا، فإنها قادرة على الاحتفاظ بخصوصياتها والنجاة من مخاطر العولمة وتجاوز سلبياتها.

(١) د. جلال احمد أمين، العولمة، ص ٤٢، دار المعارف، للقاهرة ١٩٩٨.

ومن الأساليب التي يستخدمها مهندسو العولمة ومروجوها، تهيئة الشعوب بالهزيمة والاستعداد للاستسلام أمام ما يريدون فرضه، على الشعوب والحكومات، عن طريق إضعاف الإحساس بالذاتية، وبالتميز، وبالاعتزاز بكل ما يمت إلى التراث الحضاري والرصيد الثقافي بصلة.

ومن هنا نجد أن الرفض العالمي للعولمة يتنامى باطراد، وإن كان لا يملك أن يؤثر في صد هجمات العولمة على أمم الأرض وشعوبها، على الأقل في المدى المنظور، لأننا نعتقد جازمين، أن كل نظام ظالم للإنسان، أو عقيدة قاهرة للفطرة، أو منهج يفرض الهيمنة على الإرادة الإنسانية ويتحكم في أشواق النفس البشرية الروحية وتطلعاتها الثقافية وطموحها الحضاري هو إلى تهيار وزوال لأنه يصادم سنة الله في خلقه، ويتنافى مع فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وأمام عنفوان العولمة وضغوطها القوية، لا ينبغي أن نستسلم ونذعن لإرادة الأقوياء المتحكمين في أزمة الأمور في ظل النظام العالمي الجديد، ولا يتعارض هذا الموقف المطلوب منا اتخاذه مع ما ذكرناه آنفاً.

إن الخطأ المنهجي الذي تقع فيه طائفة من المفكرين من العالم العربي الإسلامي الذين بحثوا ظاهرة العولمة، يكمن أساساً في أنهم بدلاً من أن يرسموا الخريطة الجديدة التي يتعين على المجتمعات العربية الإسلامية الاقتداء بها، ويضيقوا أمام أصحاب القرار والنخب المثقفة والمفكرة، المصاييح لتسلط على الحقائق كما هي لا كما نتوهمها أو نتخيلها أو كما نريدها أن تكون، راحوا يسهبون إسهاباً مفرطاً، في تعداد مساوئ العولمة وأضرارها والمخاطر التي تتسبب فيها، فكانوا بصنيعهم هذا، يقومون بشق من الواجب، ولا ينهضون بمسئوليتهم كاملة.

إن أحداً منا لا يجادل في أن ثمة شواهد كثيرة إلى أن قوى العولمة المعاصرة ليست سوى امتداد عضوي وإيديولوجي لقوى الاستغلال والسيطرة والاحتواء وتعمل على تكريس التبعية من جانب الدول الأقل نمواً لتلك الأكثر نمواً، وإن كانت آليات تكريس التبعية قد اختلفت في ظل العولمة من الاستعمار التقليدي إلى اللجوء لسياسة

الضغط الاقتصادي^(١)، فهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، ولكن هل تقف مسؤوليتنا عند هذا الحد، وهو الجهر بهذه الحقيقة، أم أن المسؤولية تمتد وتتشعب وتتواصل؟

إن المنهج فى بحث ظاهرة العولمة، هو إلى الوصف التحليلى والنقد السياسى من منطلق إيديولوجى، أقرب منه إلى المعالجة العلمية المستنيرة المبرأة من كل هوى سياسى أو أيديولوجى، ولذلك كان من السلبيات التى وقع فيها معظم من عالج قضية العولمة من خلال هذا المنهج، العزوف عن الموضوعية المجردة تحت تأثير الفكر الشمولى الذى كان يسود فى عهود القطبين الكبارين فى زمن الحرب الباردة.

مجال العولمة الثقافية :

العولمة، كما أسلفنا القول، منظومة متكاملة يرتبط فيها الجانب السياسى بالجانب الاقتصادى والجانبان معا يتكاملان مع الجانب الاجتماعى والثقافى، ولا يكاد يستقل جانب بذاته، وعلى هذا الأساس، فإن العولمة الثقافية هى ظاهرة مدعومة دعما محكما وكاملا، بالنفوذ السياسى والاقتصادى الذى يمارسه الطرف الأقوى فى الساحة الدولية، وللوقوف على الصورة الواضحة للأجواء التى تمارس العولمة الثقافية فى ظلها نفوذها على الشعوب والأمم، نسوق فيما يلى باختصار وتركيز طائفة من المعلومات التى تنشر وتداولها الصحافة العالمية المتخصصة والمواكبة لثورة المعلوماتية التى هى الأساس الراسخ للعولمة الثقافية، والتى تشكل القوة الضاربة للنظام العالمى الجديد.

إن تقنية المعرفة، هى قوة الدفع للعولمة الثقافية، وفى ظل النقلة الجديدة والمتطورة جدا لتقنية المعرفة، يبدو العالم منقسما إلى ثلاثة أقسام :

١- إن ١٥ بالمائة من سكان العالم يوفرون تقريبا كل الابتكارات

التكنولوجية الحديثة.

(١) رجب البنا البحث عن المستقبل، ص ٢٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩
ود. مصطفى عمر التيز، آراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية فى ظل العولمة، مجلة الحوادث.

ومن الأساليب التي يستخدمها مهندسو العولمة ومروجوها، تهيئة الشعوب بالهزيمة والاستعداد للاستسلام أمام ما يريدون فرضه، على الشعوب والحكومات، عن طريق إضعاف الإحساس بالذاتية، وبالتميز، وبالاعتزاز بكل ما يمت إلى التراث الحضاري والرصيد الثقافي بصلة.

ومن هنا نجد أن الرفض العالمي للعولمة يتنامى باطراد، وإن كان لا يملك أن يؤثر في صد هجمات العولمة على أمم الأرض وشعوبها، على الأقل في المدى المنظور، لأننا نعتقد جازمين، أن كل نظام ظالم للإنسان، أو عقيدة قاهرة للفطرة، أو منهج يقرض الهيمنة على الإرادة الإنسانية ويتحكم في أشواق النفس البشرية الروحية وتطلعاتها الثقافية وطموحها الحضاري هو إلى انهيار وزوال لأنه يصادم سنة الله في خلقه، ويتنافى مع فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وأمام عنفوان العولمة وضغوطها القوية، لا ينبغي أن نستسلم ونذعن لإرادة الأقوياء المتحكمين في أزمة الأمور في ظل النظام العالمي الجديد، ولا يتعارض هذا الموقف المطلوب منا اتخاذه مع ما ذكرناه آنفاً.

إن الخطأ المنهجي الذي تقع فيه طائفة من المفكرين من العالم العربي الإسلامي الذين بحثوا ظاهرة العولمة، يكمن أساساً في أنهم بدلاً من أن يرسموا الخريطة الجديدة التي يتعين على المجتمعات العربية الإسلامية الاقتداء بها، ويضينوا أمام أصحاب القرار والنخب المثقفة والمفكرة، المصائب لتسلط على الحقائق كما هي لا كما نتوهمها أو نتخيلها أو كما نريدها أن تكون، راحوا يسهبون إسهاباً مفرطاً، في تعداد مساوئ العولمة وأضرارها والمخاطر التي تتسبب فيها، فكانوا بصنيعهم هذا، يقومون بشق من الواجب، ولا ينهضون بمسئوليتهم كاملة.

إن أحداً منا لا يجادل في أن ثمة شواهد كثيرة إلى أن قوى العولمة المعاصرة ليست سوى امتداد عضوي وإيديولوجي لقوى الاستغلال والسيطرة والاحتواء وتعمل على تكريس التبعية من جانب الدول الأقل نمواً لتلك الأكثر نمواً، وإن كانت آليات تكريس التبعية قد اختلفت في ظل العولمة من الاستعمار التقليدي إلى اللجوء لسياسة

الضغط الاقتصادي^(١)، فهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، ولكن هل نقف مسؤوليتنا عند هذا الحد، وهو الجهر بهذه الحقيقة، أم أن المسؤولية تمتد وتتشعب وتتواصل؟

إن المنهج في بحث ظاهرة العولمة، هو إلى الوصف التحليلي والنقد السياسي من منطلق إيديولوجي، أقرب منه إلى المعالجة العلمية المستنيرة المبرأة من كل هوى سياسى أو أيديولوجي، ولذلك كان من السلبيات التي وقع فيها معظم من عالج قضية العولمة من خلال هذا المنهج، العزوف عن الموضوعية المجردة تحت تأثير الفكر الشمولى الذى كان يسود فى عهود القطبين الكبارين فى زمن الحرب الباردة.

مجال العولمة الثقافية :

العولمة، كما أسلفنا القول، منظومة متكاملة يرتبط فيها الجانب السياسى بالجانب الاقتصادى والجانبان معا يتكاملان مع الجانب الاجتماعى والثقافى، ولا يكاد يستقل جانب بذلته، وعلى هذا الأساس، فإن العولمة الثقافية هى ظاهرة مدعومة دعما محكما وكاملا، بالنفوذ السياسى والاقتصادى الذى يمارسه للطرف الأقوى فى الساحة الدولية، وللوقوف على الصورة الواضحة للأجواء التى تمارس العولمة الثقافية فى ظلها نفوذها على الشعوب والأمم، نسوق فيما يلى باختصار وتركيز طائفة من المعلومات التى تنشر وتتداولها الصحافة العالمية المتخصصة والمواكبة لنثورة المعلوماتية التى هى الأساس الراسخ للعولمة الثقافية، والتى تشكل القوة الضاربة للنظام العالمى الجديد.

إن تقنية المعرفة، هى قوة الدفع للعولمة الثقافية، وفى ظل النقلة الجديدة والمتطورة جدا لتقنية المعرفة، يبدو العالم منقسما إلى ثلاثة أقسام :

١- إن ١٥ بالمائة من سكان العالم يوفرون تقريبا كل الابتكارات التكنولوجية الحديثة.

(١) رجب البنا البحث عن المستقبل، ص ٢٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩
ودمصطفى عمر التيز، آراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية فى ظل العولمة، مجلة الحوادث.

والتوظيف المخطط والمدرّس للإمكانات والقدرات، والاستغلال الجيد للفرص المتاحة وللآفاق المفتوحة أمام العالم الإسلامي لتحقيق نقلة حضارية حقيقية.

في هذه الحالة، يمكن أن نمتلك الشروط الضرورية لتقوية جهاز المناعة الثقافية ولتعزيز قدرة الإنسان المسلم على الصمود في وجه العولمة الثقافية وبدون امتلاك هذا الشرط، يستحيل أن نحمل الهوية الثقافية الحضارية الإسلامية من مخاطر العولمة الثقافية.

إن تقوية الكيان الإسلامي اقتصاديا وعلميا وتقنيا وثقافيا وتربويا، هي الوسيلة الأجدى والأففع والأكثر تأثيرا للتغلب على الآثار السلبية للعولمة الثقافية، وللإستفادة أيضا من آثارها الإيجابية في الوقت نفسه، من خلال التكيف المنضبط من المناخ الثقافي والإعلامي الذي توجد تيارات العولمة الثقافية والتعامل الواعي مع مستجداتها ومتغيراتها وتأثيراتها، وبدون هذه الوسيلة، فسوف نضيع في مهب رياح العولمة، وتكتسحنا تياراتها العاصفة الجارفة.

ملاحح صورة المستقبل الثقافي :

إن ما تعرفه البشرية اليوم في عالم الاتصالات والمعلومات، ليس بثورة كما يعبر عن ذلك في الأدبيات المعاصرة، لأن الثورة فوضى وخط عشواء واندفاع في غير ما اتجاه محدد، وإنما هو تطور شامل عميق وجذرى يقوم على استغلال العلم والتقنية إلى أبعد الحدود، وعلى الدراسة والتخطيط وتوظيف القدرات المهنية والتقانية والجمع بين الخبرات المتعددة المتركمة في ميادين علمية تطبيقية متنوعة، وهذا العمل المتقن المحكم المدرّس ليس ثورة.

ولقد أحدث هذا التطور المهول في عالم الاتصالات والمعلومات، تحولات عميقة في الثقافة والإعلام والاتصال، وفي مجالات النشاط الفكرى والذهنى والإسائى المتنوعة، وقياسا على الحجم الذى بلغته هذه التحولات في الوقت الراهن، وربطها بينها وبين المتغيرات الكثيرة التى تعرفها الإنسانية اليوم في ميادين الاقتصاد والتجارة والصناعة والزراعة والطب والهندسة الوراثية والفضاء، نستطيع أن نبنى

توقعاتنا لما ستنتهى إليه ظاهرة العولمة الثقافية في المستقبل على المدى القريب والمتوسط على حسابات لا تبعد كثيرا عن الصحة.

إن الأمر المؤكد أن العولمة الثقافية ستبلغ درجة قصوى من التطور تصل بها إلى درجة من التغلغل والنفوذ غير المعهود، وهذا ما يتطلب من الحكومات والشعوب، الاستعداد على جميع المستويات، للتعامل مع الحالة المرتقبة.

ولكن الأمر المؤكد أيضا - واستنادا إلى الحسابات نفسها - أن ظاهرة العولمة الثقافية، لا بد وأن تنكسر وتراجع إذا استمرت في التصاعد على هذه الوتيرة، وبالأسلوب الحالي، وبقوة دفع من السياسة ذات النزعة الاستبدادية والمدفوعة بخطرسة الهيمنة والإصرار على قهر إرادة الشعوب وإكراهها على تبني سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وإعلامية، تتعارض مع مصالحها، وتصادم خصوصياتها الثقافية والحضارية.

ويمكن أن نقول في ضوء تحليلنا هذا، أن العالم الإسلامي سيجد نفسه محاصرا بمعركة ثقافية ضارية، لا سبيل إلى التغلب على آثارها والانتصار فيها، إلا بتطوير آليات العمل الثقافي، وبتحديث وسائله، وبمراجعة شاملة وعميقة لأهدافه وغاياته.

وفي هذا المقام، نشير إلى الأداة الفعالة لتحقيق النهضة الثقافية التي يمتلكها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، وهي (الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي) التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي السادس المنعقد بذاكار في عام ١٩٩١، والتي تشكل الإطار الملانم والمتكامل للعمل الثقافي العام في البلدان الإسلامية، وهي استراتيجية وضع آليات تنفيذها، المؤتمر الإسلامي الثاني لوزراء الثقافة الذي عقد في الرباط بالمملكة المغربية في عام ١٩٩٨، وهي بذلك جاهزة للتنفيذ على المستويين.. الوطني - في إطار السياسات الثقافية لكل دولة عضو - والإسلامي في نطاق العمل الإسلامي المشترك ومن منطلق التضامن الإسلامي.

والتوظيف المخطط والمدرّوس للإمكانات والقدرات، والاستغلال الجيد للفرص المتاحة وللأفاق المفتوحة أمام العالم الإسلامي لتحقيق نقلة حضارية حقيقية.

في هذه الحالة، يمكن أن نمتلك الشروط الضرورية لتقوية جهاز المناعة الثقافية ولتعزيز قدرة الإنسان المسلم على الصمود في وجه العولمة الثقافية وبدون امتلاك هذا الشرط، يستحيل أن نحمل الهوية الثقافية الحضارية الإسلامية من مخاطر العولمة الثقافية.

إن تقوية الكيان الإسلامي اقتصاديا وعلميا وتقنيا وثقافيا وتربويا، هي الوسيلة الأجدى والأففع والأكثر تأثيرا للتغلب على الآثار السلبية للعولمة الثقافية، وللاستفادة أيضا من آثارها الإيجابية في الوقت نفسه، من خلال التكيف المنضبط من المناخ الثقافي والإعلامي الذي توجده تيارات العولمة الثقافية والتعامل الواعي مع مستجداتها ومتغيراتها وتأثيراتها، وبدون هذه الوسيلة، فسوف نضيع في مهب رياح العولمة، وتكتسحنا تياراتها العاصفة الجارفة.

ملاحح صورة المستقبل الثقافي :

إن ما تعرفه البشرية اليوم في عالم الاتصالات والمعلومات، ليس بثورة كما يعبر عن ذلك في الأدبيات المعاصرة، لأن الثورة فوضى وخبط عشواء واندفاع في غير ما اتجاه محدد، وإنما هو تطور شامل عميق وجذري يقوم على استغلال العلم والتقنية إلى أبعد الحدود، وعلى الدراسة والتخطيط وتوظيف القدرات المهنية والثقافية والجمع بين الخبرات المتعددة المترابطة في ميادين علمية تطبيقية متنوعة، وهذا العمل المتقن المحكم المدرّوس ليس ثورة.

ولقد أحدث هذا التطور المهول في عالم الاتصالات والمعلومات، تحولات عميقة في الثقافة والإعلام والاتصال، وفي مجالات النشاط الفكري والذهني والإنساني المتنوعة، وقياسا على الحجم الذي بلغته هذه التحولات في الوقت الراهن، وربطها بينها وبين المتغيرات الكثيرة التي تعرفها الإنسانية اليوم في ميادين الاقتصاد والتجارة والصناعة والزراعة والطب والهندسة الوراثية والفضاء، نستطيع أن نبني

توقعاتنا لما سنتهي إليه ظاهرة العولمة الثقافية في المستقبل على المدى القريب والمتوسط على حسابات لا تبعد كثيرا عن الصحة.

إن الأمر المؤكد أن العولمة الثقافية ستبلغ درجة قصوى من التطور تصل بها إلى درجة من التغلغل والنفوذ غير المعهود، وهذا ما يتطلب من الحكومات والشعوب، الاستعداد على جميع المستويات، للتعامل مع الحالة المرتقبة.

ولكن الأمر المؤكد أيضا - واستنادا إلى الحسابات نفسها - أن ظاهرة العولمة الثقافية، لا بد وأن تنكسر وتراجع إذا استمرت في التصاعد على هذه الوتيرة، وبالأسلوب الحالي، وبقوة دفع من السياسة ذات النزعة الاستبدادية والمدفوعة بغطرسة الهيمنة والإصرار على قهر إرادة الشعوب وإكراهها على تبني سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وإعلامية، تتعارض مع مصالحها، وتصادم خصوصياتها الثقافية والحضارية.

ويمكن أن نقول في ضوء تحليلنا هذا، أن العالم الإسلامي سيجد نفسه محاصرا بمعركة ثقافية ضارية، لا سبيل إلى التغلب على آثارها والانتصار فيها، إلا بتطوير آليات العمل الثقافي، وبتحديث وسائله، وبمراجعة شاملة وعميقة لأهدافه وغاياته.

وفي هذا المقام، نشير إلى الأداة الفعالة لتحقيق النهضة الثقافية التي يمتلكها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، وهي (الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي) التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي السادس المنعقد بدارا في عام ١٩٩١، والتي تشكل الإطار الملائم والمتكامل للعمل الثقافي العام في البلدان الإسلامية، وهي استراتيجية وضع آليات تنفيذها، المؤتمر الإسلامي الثاني لوزراء الثقافة الذي عقد في الرباط بالمملكة المغربية في عام ١٩٩٨، وهي بذلك جاهزة للتنفيذ على المستويين.. الوطني - في إطار السياسات الثقافية لكل دولة عضو - والإسلامي في نطاق العمل الإسلامي المشترك ومن منطلق التضامن الإسلامي.

الخاتمة

إن العالم الإسلامي لا يملك أن يمنع العولمة الثقافية والانتشار، لأنها ظاهرة واقعية مفروضة على الشعوب والحكومات بحكم قوة النفوذ السياسي والضغط الاقتصادي والتغلغل الإعلامي والمعلوماتي التي يمارسها النظام العالمي الجديد، ولكن العالم الإسلامي يستطيع أن يتحكم في الآثار السلبية لهذه العولمة، إذا بذل جهوداً مضاعفة للخروج من مرحلته الحالية إلى مرحلة التقدم في المجالات كلها، وليس فحسب في مجال واحد، للترابط المتين بين عناصر التنمية الشاملة ومكوناتها.

إن التعامل مع ظاهرة العولمة الثقافية لا بد وأن يقوم على أساس القوة الاقتصادية والاستقرار السياسي والسلم الاجتماعي والتقدم في مجالات الحياة كلها، وهذا ما يتطلب بالدرجة الأولى تفوية كيان الأمة الإسلامية من الجوانب كافة، وترسيخ قواعد العمل الإسلامي المشترك، على مستوياته المتعددة، من أجل الدفع بالتعاون بين المجموعة الإسلامية نحو آفاق أرحب تطلعا وإلى مستقبل أكثر إشراقاً.

والقضية في عمقها مرتبطة بمدى قوة الإرادة الإسلامية وتماسك جبهة التضامن الإسلامي وتضافر جهود المسلمين كافة، في سبيل رد الغارة الثقافية على العالم الإسلامي، بالعلم، وبالفهم، وبالوعي، وقبل ذلك كله، بالإيمان واليقين والتضامن والأخوة الإسلامية.